# مقدمة القسم الرابع

ترجمة بتصرف
أ.د. مضر خليل عمر

ربما تتساءل : "لماذا أقرأ عن الطبيعة ؟ أنا أدرس جغرافية الثقافة" . إذا كان الأمر كذلك ، فقد صادفت أحد الأسئلة الرئيسية لجغرافيي الثقافة . فمن الشائع فصل "البشر" عن "الطبيعة" ؛ فضلاً عن ذلك ، من المعتاد عد "الثقافة" من اختصاص المجتمعات البشرية حصريًا (ينظر أيضًا مقدمة الجزء الأول). قد يكون لدى الحيوانات غير البشرية ، مثل الرئيسيات والدلافين والحشرات والطيور ، طرق معقدة نسبيًا للتواصل مع بعضها البعض ، وتسلسلات هرمية اجتماعية متطورة بشكل مدهش ، والقدرة على التعبير عن المشاعر مثل الحزن على وفاة شريك . ومع ذلك ، فإن الحكمة التقليدية تؤكد أن البشر فقط هم الذين يشاركون حقًا في أفعال من الدرجة العليا والتي تشكل معًا الثقافة : استخدام النار لطهي الطعام ، أو تشكيل المعادن ، أو درء البرد ؛ إدراك المرء لفنائه ؛ بناء أنظمة اتصال رمزية مجردة ؛ وما إلى ذلك .

وعلى النقيض من ذلك ، يُنظَر إلى **الطبيعة عادةً كونها العالم غير البشري الذي يحيط بنا** . وتتألف الطبيعة من كائنات حية ، مثل الحيوانات والأشجار والميكروبات ؛ وكيانات غير حية ، مثل الصخور والمياه والسحب . بعبارة أخرى ، **الطبيعة هي كل ما لا تمثله الثقافة** . وبالتالي ، فإن جغرافية الثقافة بحكم التعريف من شأنها أن تستبعد دراسة الطبيعة ، إذا كان لنا أن نلتزم بهذه التمييزات بين الطبيعة والثقافة . والواقع أن الحدود بين الطبيعة والثقافة بعيدة كل البعد عن أن تكون واضحة المعالم . وعلاوة على ذلك ، لم تكن كذلك قط .

ورغم أن المفاهيم السائدة حول ما ينبغي أن يُدرَج في فئة الطبيعة قد تغيرت بمرور الوقت ، فقد كان هناك دائمًا بعض الخلاف حول تعريفها . وعلى وجه الخصوص ، شكلت مكانة البشر في مقابل الطبيعة معضلة مثيرة للاهتمام بشكل خاص ، تناولتها عبر العصور مجموعة متنوعة من وجهات النظر اللاهوتية والأدبية والعلمية والفلسفية . هل يعيش البشر خارج الطبيعة ، ولا يخضعون للقوانين الطبيعية التي تؤثر على الكائنات الحية الأخرى ؟ هل يتمتع البشر بالحق ، وربما حتى بالتفويض ، في استخدام الطبيعة وتعديلها من أجل بقائنا ومتعتنا ؟ هل خلق الله (أو الآلهة) العالم الطبيعي في الواقع من أجل البشر، أم أن الطبيعة نفسها إله (أو إلهة) ؟ هل البشر مجرد عنصر آخر في الطبيعة ، يخضع لنفس القوانين والدوافع التي تخضع لها الكائنات غير البشرية ؟ **ما هو الحق الذي يتمتع به البشر في استهلاك الكائنات غير البشرية ، واستخدامها في العمل ، أو السيطرة عليها من أجل الرفقة** ؟ هل هناك أي دليل على أن البشر يتمتعون بذكاء أو حساسية أو متانة متفوقة مقارنة بالكائنات غير البشرية ؟ هل تؤدي تصرفات البشر في الواقع إلى تدمير أنظمة دعم الحياة على الأرض - الماء والتربة والغلاف الجوي والحياة الحيوانية والنباتية - التي نتشابك معها نحن البشر بشكل وثيق ؛ وإذا كان الأمر كذلك ، **ألا ينبغي لنا أن ندرك أن الطبيعة والثقافة ، على مستوى ما ، لا ينفصلان ؟**

إن الخطوط المتغيرة للطبيعة والثقافة مرتبطة ارتباطًا وثيقًا بالطرق المتنوعة والمتغيرة التي تُستخدم بها اللغة ، وكيف تتغير هذه الطرق بمرور الوقت . وهذه نقطة يوضحها اختيار ريموند ويليامز "الطبيعة" بوضوح تام . إن الاستخدامات الثلاثة الرئيسية لمصطلح "الطبيعة" - والتي ما تزال جميعها مستخدمة حتى اليوم - تتعارض حول **ما إذا كانت الطبيعة** ، على سبيل المثال ، قوة متأصلة تنبعث من الداخل ، أم أن الطبيعة تشير إلى صفات خارجية ؟ هل تشير الطبيعة إلى الإلهي ، أم أنها مقتصرة على العالم المادي ؟

والأمر الأكثر أهمية ، هل تشمل الطبيعة البشر أم تستبعدهم ، وما هي الآثار المترتبة على ذلك بالنسبة لنا كبشر؟ **هل نحن فوق الطبيعة ؟ هل لدينا الحق أو حتى التفويض بالسيطرة على الطبيعة** ؟ أم أننا جزء منها ، وبالتالي ربما جزء من الهندسة المعمارية الإلهية لله ، أو السبب الإلهي للعلم ؟ وعلى حد تعبير ويليامز ، فإن الحذر مطلوب ، "لأن الطبيعة كلمة تحمل ، على مدى فترة طويلة للغاية ، العديد من الاختلافات الرئيسية في الفكر البشري – غالبًا ، في أي استخدام معين ، ضمنيًا فقط ولكن أيضًا بشكل غير مباشر" . "**إن الطبيعة هي في الواقع بناء اجتماعي** . فهي تؤثر بقوة على طبيعة الحجة ـ ومن الضروري أن ندرك بشكل خاص صعوبة هذه الحجة" .

ولنذهب إلى أبعد من ذلك قليلاً ، قد نتساءل عما إذا كان هناك شيء مثل "الطبيعة" في حد ذاتها . أو ، كما هو الحال مع العديد من المصطلحات الأخرى المسلم بها ـ مثل الجنس والعرق والأمة وما إلى ذلك ـ **هل الطبيعة أيضًا بناء اجتماعي** ؟ يمكن فهم هذا الادعاء على المستوى المفاهيمي ، بمعنى أن الطريقة التي نحدد بها الطبيعة تقول الكثير عن من يقوم بالتعريف أكثر مما تقول عن ما يتم تعريفه . بعبارة أخرى ، فإن محتويات الطبيعة متنوعة بشكل محتمل لدرجة أن ما يتم تعريفه على أنه طبيعة في النهاية هو انعكاس لعلاقات القوة الاجتماعية (وبالتالي ، يمكن أن يعمل على تشكيل علاقات القوة الاجتماعية هذه) .

فكر، على سبيل المثال ، في نشطاء حقوق الحيوان وصراعاتهم المعلنة للغاية مع صناعة الأزياء حول استخدام فراء الحيوانات وجلودها في الملابس . إذا كان البشر متفوقين بالفعل على الحيوانات ، وعلاوة على ذلك لديهم الحق الإلهي في الافادة منها من أجل بقائنا ومتعتنا ، فلا توجد مشكلة في ارتداء معطف من الفرو أو حذاء جلدي . ومع ذلك ، إذا كان تعريف المرء للطبيعة يمنح الحيوانات المكانة نفسها - أو حتى أعلى - من البشر، فإن الحيوانات لها حقوق تمنع قتلها من قبل حيوانات أخرى (بشر)، بحيث يكون ارتداء حيوان غير أخلاقي . أو فكر في **العنصرية والاستعمار**، وكلاهما يعتقد أن بعض البشر هم في الواقع حيوانات - جزء من الطبيعة - وبالتالي فإن هيمنتهم واستغلالهم واستعبادهم - أمر مشروع . تمت مناقشة مثل هذه الصراعات حول التعريفات المتنافسة للطبيعة ، وكيف يتم نقلها إلى التفاعلات البشرية مثل الفئات العنصرية ، في اختيار Elder و Wolch و Emel بعنوان."Le Pratique sauvage" يمكن فهم الادعاء بأن الطبيعة بناء اجتماعي بطريقة أكثر حرفية .

إن بصمة التعديل البشري على الأرض أمر لا مفر منه ؛ في الواقع ، كان هذا الإدراك في صميم النهج المورفولوجي لكارل ساور لفهم المظاهر الطبيعية (ينظر مقدمة الجزء الثالث). **اليوم، سيكون من الصعب أن تجد أي ركن من أركان الأرض ، مهما كان بعيدًا ، ما يزال غير متغير تمامًا بسبب التأثير البشري** . في الاختيار المعنون "خلق طبيعة ثانية" ، زعم كلارنس جلاكن أنه حتى في العالم القديم ، كان ما تصوره البشر على أنه طبيعة في الواقع طبيعة ثانية ، تغيرت بشكل عميق بسبب الحضارة البشرية . يقدم الاختيار الذي اختاره "أجاكس"، أحد الأسماء المستعارة العديدة التي استخدمها ج. ب. جاكسون ، وجهة نظر لاذعة حول فصل البشر عن الطبيعة في الخمسينيات من القرن العشرين في مقاله "العيش في الهواء الطلق مع السيدة بانثر" .

على مدار القرن التاسع عشر، كان تخصص الجغرافيا قد أصبح راسخًا ، في أوروبا وكذلك في الولايات المتحدة ، كمجال دراسة مشروع يمكن للمرء أن يحصل فيه على درجة جامعية . لقد ثبت أن مسألة الطبيعة وعلاقة الجغرافيا بالطبيعة قضية ملحة آنذاك ، كما هو الحال اليوم . ففي العقود الأولى للجغرافيا ، لم يكن هناك تمييز واضح بين الجغرافيين البشريين والجغرافيين الفيزيائيين ، كما هو الحال اليوم . بل كان الشعور السائد هو أن الغرض من الجغرافيا كتخصص هو دمج ، أو سد الفجوة ، بين العلوم الطبيعية والبشرية . وقد ثبت أن هذا يشكل مبررًا دائمًا لتخصص الجغرافيا يمكن سماعه بسهولة اليوم : **الجغرافيا تستكشف**

**الواجهة بين الطبيعة والثقافة** . ومع ذلك ، كانت هذه الواجهة دائمًا منحازة بشكل أحادي الجانب نحو الجانب البشري من المعادلة . وكما لاحظت سارة واتمور ، "مع شروع الجغرافيين البشريين في الاتجار بين الثقافة والطبيعة ، تم تهريب عدم التماثل الأساسي في معالجة الأشياء المخصصة لهذه الفئات إلى المشروع".

خلال ثلاثينيات القرن العشرين ، كانت هناك أطروحة واحدة حول العلاقة بين البشر والطبيعة تؤكد أن العمليات مثل الانتقاء الطبيعي لا تشكل تطور الأنواع (البشرية وغير البشرية) فحسب ، بل تحدد شخصيتها أيضًا . ويمكن إرجاع فكرة أن الطبيعة تحدد شخصية الإنسان وإمكاناته إلى مقال أبقراط "الهواء والمياه والأماكن" ، الذي كتبه في القرن الخامس قبل الميلاد . أكد أبقراط أن جسم الإنسان يتألف من أربعة أخلاط أو سوائل : الدم ، والصفراء السوداء ، والصفراء الصفراء ، والبلغم . وكان غلبة أحد الأخلاط على الآخرين يحددها المناخ ؛ على سبيل المثال ، كان سكان المناخات الباردة الرطبة يمتلكون كمية زائدة من البلغم (ومن هنا جاءت صفة "بلغمي" لوصف الناس العقلانيين غير العاطفيين في المناطق الشمالية) ، في حين كان سكان المناخات الدافئة الحارة يميلون إلى الدم (ومن هنا جاءت صفة "دموي" لوصف سكان المنطقة الحارة) .

لقد وصلت فكرة أن المناخ يحدد شخصية الإنسان وإمكاناته إلى ذروتها في الحتمية البيئية في القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين ، كما انعكس ذلك في أعمال الجغرافي الألماني كارل ريتر، والجغرافية الأمريكية إلين تشرشل سيمبل . لقد كانت الحتمية قابلة للاستغلال بسهولة من قِبَل المساعي العنصرية والإمبريالية ، وذلك من خلال افتراض الدونية الثابتة التي يتمتع بها سكان المناطق الاستوائية . كما كانت هذه المقاربة تبسيطية وغير قادرة على استيعاب تعقيد التفاعلات بين الإنسان والطبيعة بطريقة علمية ، وخرجت عن تفضيل الجغرافيين (ينظر أيضًا مقدمة الجزء الثاني) .

وخلال منتصف القرن العشرين ، أصبح تخصص الجغرافيا منقسمًا بشكل أكثر ثباتًا بين الجغرافيين الفيزيائيين الذين يدرسون العالم الطبيعي ، والذي يُعرَّف بشكل ضيق بأنه محيطنا غير البشري وعملياته (على سبيل المثال ، علماء شكل الأرض، والجغرافيين الحيويين ، وعلماء المحيطات ، والجغرافيين المائيين)، والجغرافيين البشريين الذين يدرسون العالم البشري (على سبيل المثال ، الجغرافيون الاجتماعيون، والجغرافيون السياسيون ، والجغرافيون الاقتصاديون ، والجغرافيون الثقافيون). وحتى وقت قريب ، لم يأخذ الجغرافيون البشريون كمجموعة الطبيعة غير البشرية في الحسبان كثيرًا كموضوع صريح للدراسة ، باستثناء الجغرافيين البيئيين . ولم ينظروا إلى الطبيعة ومكانة البشر في الطبيعة على أنها شيء يجب أن يُشكَّل أو يُحلَّل نقديًا . وفي المجالات ذات الصلة ، مثل الدراسات البيئية والكتابة عن الطبيعة ، تم إثارة إشكالية هذه العلاقة في وقت سابق ، مما سمح لجغرافيي الثقافة بالافادة من رؤاهم .

ولكن بحلول ثمانينيات القرن العشرين ، حول بعض الجغرافيين البشريين تركيزهم إلى هذه الأسئلة ذاتها . وكما ناقشنا في مقدمة الاختيار الذي قدمه جلاكن ، فقد تبنى الجغرافيون الماركسيون مفهوم الإنتاج الاجتماعي للطبيعة . فبدلاً من ما هو خارج المجال البشري ، أعيد وضع الطبيعة بشكل مباشر داخل نطاق الإنتاج البشري . وفي منشور بارز في هذا السياق ، لاحظ نيل سميث أن "الطبيعة يُنظَر إليها عمومًا على أنها بالضبط ما لا يمكن إنتاجه ؛ إن الطبيعة هي نقيض النشاط الإنتاجي البشري... ولكن مع تقدم تراكم رأس المال وتوسع التنمية الاقتصادية ، أصبحت هذه الطبقة المادية أكثر فأكثر نتاجًا للإنتاج الاجتماعي... " **فكر للحظة في الطعام الذي تتناوله** . في حين أن بعض الأشياء طبيعية ، فإن الكثير مما نستهلكه اليوم يتم تربيته في بيئة مزارع صناعية أو في حقول عملاقة من المحاصيل الأحادية المعدلة وراثيًا . وهناك حتى محاولات جارية لزراعة اللحوم في المختبرات ، من أجل تجنب التكاليف الاقتصادية والبيئية والأخلاقية لتربية الماشية وذبحها للحصول على اللحوم ونقل اللحوم إلى السوق .

وفي خطوة ذات صلة ، ولكنها لاحقة إلى حد ما ، أصبحت الطبيعة كونها بناء اجتماعي محور اهتمام بعض جغرافيي الثقافة المعاصرين . ويوضح اختيار ألكسندر ويلسون هنا، من كتابه بعنوان ثقافة الطبيعة ، هذا النهج . في هذا الكتاب ، يستكشف ويلسون كيف أن تصميم المظاهر الطبيعية في ضواحي أميركا بعد الحرب العالمية الثانية أدى في الواقع إلى تدمير الغطاء النباتي الأصلي واستبداله بمزيج منمق من الأنواع والتكنولوجيا غير الأصلية (في شكل الأسمدة والمبيدات الحشرية والري والعناية الميكانيكية) المصممة لتوفير أرضية تأسيسية يمكن من خلالها عرض شكل معين من الذاتية للضواحي الحديثة .

يضع عمل ويلسون لمسة معاصرة على فكرة جلاكن عن الطبيعة الثانية . وعلى نطاق أوسع ، فإنه يؤكد (إلى جانب "الممارسة الوحشية") كيف يرتبط البناء الاجتماعي للطبيعة ارتباطًا وثيقًا بالبناء الاجتماعي لفئات مجتمعية أخرى ، مثل الجنس والعرق . تشترك هذه المناهج في نشأتها مع غيرها في جغرافية الثقافة في التسعينيات ، وخاصة المظاهر الطبيعية ، والتي تنبع من التحول الثقافي الأوسع في العلوم الاجتماعية (ينظر أيضًا مقدمة الجزء الثالث). وعلى هذا فإنهم يركزون أيضاً على تمثيلات الطبيعة في اللغة والصورة والرمز، وكيف تعمل التمثيلات على إضفاء طابع طبيعي على العلاقات الاجتماعية الأوسع للسلطة في المجتمع.

ولاحظ منتقدو هذه المناهج الخاصة بإنتاج وبناء الطبيعة أنه على الرغم من كل ما توصلوا إليه من رؤى ، فإنهم في نهاية المطاف يؤكدون على أولوية البشر في العلاقة بين الطبيعة والثقافة ، حيث يتم استيعاب الطبيعة في الجانب البشري من الشؤون كونها مجرد نتاج للأنشطة البشرية ، بدلاً من امتلاك وجود مستقل عن عالم الإنسان . ويرى هؤلاء الجغرافيون أن البشر مجرد واحد من العديد من الجهات الفاعلة المشاركة في شبكات معقدة تتألف من الحيوانات والنباتات وأنظمة دعم الحياة على الأرض من التربة والمياه والهواء . وفي هذا النهج ، المشار إليه **بنظرية شبكة الجهات الفاعلة**، لا يتمتع البشر بامتيازات ؛ بل يُنظر إليهم ببساطة كونهم شركاء مع جهات فاعلة غير بشرية في تبادل دقيق قائم على المكان ، كما يناقش أوين جونز وبول كلوك في اختيارهما "بستان" .

وبدلاً من أن يشكل هذا زوجاً متعارضاً من الفئات ، فإن التمييز بين الثقافة والطبيعة ذاتها موضع تساؤل ، كما هو الحال مع التركيز الشامل على الجانب البشري للأشياء . فالكائنات غير البشرية قد تكون فاعلة ، وتتمتع بالقدرة على التصرف والقصد ، وتتمتع بقدرة مساوية أو أكبر من القوة التي يتمتع بها البشر. لقد أعاد جغرافيو الثقافة المعاصرون الطبيعة إلى دائرة الضوء بطرق مثيرة ، سواء من خلال الاستعانة بنظريات ماركسية أو نسوية أو ما بعد الحداثة أو شبكات الممثلين أو النظريات غير التمثيلية .